

دعوة الى اتجاه جديد :

التربية الجنسية

للاذيب يحيى هويدى

تشهد مصر الآن نهضة فى الإصلاح الاجتماعى ، لا يسع كل مصرى حين ينظر إليها وقد تغلغت فى معظم نواحي الحياة إلا أن يؤمل من ورائها خيرا .

وعلى الرغم من أن هذه النهضة جديدة بالاعجاب حقا ، وعلى الرغم من أنها خير ما تعتر به مصر الفتية ، إلا أنها ما زالت فى حاجة الى بعض التوجيهات التى لا غنى عنها فى نواحي لم ترسخ قدمها فيها بعد . وسأتحدث فى هذا المقال عن ناحية هامة أغفلها المشتغلون بالشؤون الاجتماعية ، ولم تحظ منهم بأى انتباه على الرغم من أهميتها وجوهريتها .

أرجع بعض علماء النفس المحدثين الدوافع الأساسية التى تسيطر على سلوك الانسان وتدفعه الى النشاط الى دافعين أصليين : دافع لإرضاء الجوع ودافع لإرضاء الحاجة الجنسية . وقد عابلت وزارة الشؤون المشاكل الاجتماعية التى تنتج عن تحقيق الدافع الأول ، وبلغت فى هذا السبيل مرحلة تحمد عليها ، فأشأت مطاعم الشعب ، وتوسعت فى اطعام أبناء المدارس وما الى ذلك . ولكنها لم تعالج بعد والدافع الثانى المسيطر على السلوك ، وهو الدافع الجنسي . وإذا كانت قد اهتمت به فاهتمامها لا يتجاوز مرحلة ضيقة من المراحل التى يظهر فيها هذا الدافع ، وهى المرحلة الأخيرة ، وأعنى بها مرحلة الزواج . مع أن هذا الدافع يظهر مبكرا جدا فى حياة الفرد ، بل إن ثمة دلائل معينة يستدل بها علماء التحليل النفسى على وجود هذا الدافع فى السنوات الأولى من حياة الطفل . ومهما يكن من شئ ، فعلى أن نلاحظ أمرين لا سبيل الى مناقشتها وهما :

(أولا) أهمية الدافع الجنسي فى السلوك الانسانى .

(ثانيا) أن هذا الدافع لا يبدأ بابتداء سن المراهقة .

والواقع أن سن المراهقة — وهى السن التى يظهر فيها هذا الدافع بشكل حاد ، ويتحدد ويتضح بعد أن كان غامضا مبهما — أقول إن مرحلة المراهقة من أخطر المراحل التى يمر بها الفرد فى حياته ، وقد تنقلب حياة الفرد فيها رأسا على عقب ، وقد يتحول مجرى سلوكه الى أبعد مما كان يظنه القائمون بأمره ، ومن أجل هذا يجب أن يهب لها الفرد تهيئة صالحة حتى إذا ما وصل إليها ألفاها شيئا عاديا أو على الأقل ليس بغريب كل الغرابة . وهنا يتدخل عمل المشتغلين بالشؤون الاجتماعية ، ويضربون بسهمهم فى هذا الميدان .

فكل منا يذكر جيدا ذلك التحفظ وتلك القداسة التى كان يحاط بها جميع ما يتصل بالأمور الجنسية أمامه فى عهد الطفولة ، وأن والديه كانا يسميان جهدهما فى إبعاده عن كل ما يتصل بهذه الأمور التى كان ينظر إليها — وما زال ينظر إليها — على أنها من هجر القول وخشع . والأب الذى كان ينبج فى أبعاد الحديث فى هذه الأمور عن مسامع ابنه ،

أو الذي كان ينبغي في تغطية هذا الموضوع أمام الطفل ، وتحويل مجرى الحديث الى شيء آخر إذا فرض وسمع الطفل كلمة تتصل بهذه الشؤون ، فأنارت اهتمامه فطفق يسأل عنها ويحاليها شات الأطفال عادة — أقول إن الأب الذي كان ينبغي في هذا كله ، كان يعتبر نفسه ناجحاً في تنشئة ولده .

وقد لا يلجأ الأب الى أمثال هذه الطرق ، إذ قد تشور ثائرته عند ما يسمع ابنه يتدخل في هذه الأمور ، ويندفع في سورة غضبه باطشا بابنه مهددا له ومنذرا بأقصى أنواع العقاب .

على أن عقلية الطفل ليست بالسذاجة التي يتصورها عليها أبواه ، وإن يتبع الطفل بهذه الاجابة السريعة ولا بهذا التهديد المنذر . وأيا كان الأمر ، فإن الطفل سيلاحظ من أول وهلة أن في الأمر سرا يجب كشفه ، وأن والده لم يصارحه بالحقيقة التي لمح آثارها مستخفية في لمحات وجهه ، ابتسامة مستورة أو حمرة خجل علت وجه الوالد ... الخ . وسرمان ما يشب الطفل وينمو ، ولكن شيئاً واحداً سيظل يعكس صفو حياته ويحتل من تفكيره جزءاً ليس باليسير ، ألا وهو هذا التكتّم الذي تحاط به هذه الأمور أمامه ، وهذا التخرج من التحدث فيها ، وهو في حضرة أفراد الأسرة الذين يكبرونه . ويظل الطفل على هذه الحال حتى يصل الى سن المراهقة ، ويكتشف من نفسه الدافع الجنسي ، ويصل الى حل السر الذي طالما ألققه وحرص أباه على إخفائه عنه . وإذا ما اكتشف في نفسه هذا الدافع على حدته وعزيمه ، فانه قد يتأثر بهذا الاكتشاف كل التأثير ، وقد يصاب من أجل هذا بصدمة نفسية تظلي ملازمة له مدى الحياة . ويجد نفسه بين قطبين يتجاذبان به ويشده كل منهما الى جانبه : فيجد من ناحية أن هذا الذي اكتشفه في نفسه ليس مما يحسن التحدث به جهراً أمام والديه إذ أنهما حرصا في عهد طفولته على إبعاده من الحديث في الأمور التي تتصل به . ويصاحب هذا التكتّم شعور بالرهبة نحو هذا الدافع وما يتصل به لن يفارقه مدى الحياة . ويجد من ناحية أخرى أن هذا الدافع الجنسي قوى ملح ، لا يقوى على إهماله وإماتة التفكير فيه . وينشأ من هذا الصراع الذي قد يستخدم ويشند حتى تغدو النفس فريسة له ، ويشل التفكير ، ويشاهد الشاب في هذه الحالات في حالة نكوص عن نشاطه المألوف ، وبعد عن الاختلاط الاجتماعي وما الى ذلك — أقول إنه تنشأ من هذا الصراع أزمة نفسية حادة . ويذهب بعض العلماء والأطباء الى أن معظم الأمراض العصبية والنفسية ناشئة عن هذا الصراع الذي ينصب على الدافع الجنسي . فقد ذكر الدكتور " جيلبي " في حديثه الذي ألقاه أمام القسم النفسي للثوار الدولي للاثربولوجيا أن نسبة الصرعى بالأمراض العصبية والنفسية في الشعب الانجليزي بوجه عام ٣٥٪ وقال إن معظم المرضى الخصوصيين الذين عرضت له حالاتهم كانوا ممن لم يتلقوا أية معلومات جنسية على آباءهم في عهد طفولتهم .

ويقول " رانسي " في كتاب عن " الزواج الصحي " :

”يستطيع المرء أن يقرر على نحو إيجابي قاطع أن أكبر عدد من الأمراض العصبية والهيستيرية في هذه الأيام يمكن أن يرجع إلى تربية خاطئة في الصحة الجنسية“ .

ولم تختلف مناهج التربية التعليمية عما كان يقوم به الآباء نحو أبنائهم في المنازل فيما يتعلق بهذه الشؤون . فكانت نظم التربية وأبحاث الكتاب إلى ما قبل خمسين سنة خلت ، خالية تماما من الحديث العلمي عن الأمور الجنسية . فقد اتجهت التربية إلى الداهية العقلية في الفرد فحسب ، وأخذت على عاتقها تنمية قواه الإدراكية وتزويده بمختلف أنواع العلوم والمعارف ، كأن الإنسان في نظرها عقل محض ، فلم تكن بهذا وسيلة لإعداد الحياة الحقة ، بل كانت على هامش الحياة . وتخرج الكتاب أيضا عن الكتابة في هذه الموضوعات ، إذ كانوا ينظرون إليها نظرة استمزاز ونفور ، وكان الخير كل الخير في نظرهم أن يحيطوها بالكتمان ألا يتعرضوا لها في أحاديثهم . فكانوا بهذا يرون أن حل المشكلة في الهروب منها ، مع أننا نعرف أن الهرب من المشكلة أسوأ الحلول لها — إذا كان ثمة ما يدعو إلى أن نسميه حلا على الإطلاق — إذ أن الحل لا يسمى حلا إلا إذا قضى على المشكلة ، والهروب منها يدعها قائمة . ولست في حاجة إلى القول بأن الآثار التي ترتبت على اتباع هذا المنهج في الشؤون التعليمية لم تخف عن الآثار التي ترتبت على اتباعه في التربية المنزلية : أمراض عصبية ونفسية ، شعور بالرهبة أمام الدافع الجنسي في حين أنه يجب أن يحى هذا الشعور إطلاقا ، تهالك على إرضاء هذا الدافع في مرحلة المراهقة ، إذ أن الشاب سينظر إليه على أنه من الأمور المحظورة كما ساعدت على ذلك تربيته المنزلية والتعليمية ، وكل محذور مرغوب فيه كما يقولون ، وما إلى هذه الآثار الخطيرة .

تداركت التربية الحديثة في معظم أمم العالم المتمدن هذا الخطر الداهم وسعت إلى حل المشكلة الجنسية حلا موفقا . وكان سيلها إلى ذلك هو ملاقات المشكلة وجها لوجه ، والعدول عن الطريقة القديمة . إذ أنه كما يقول ”والتر جاليشاي“ في كتابه عن نفسانية الزواج ”يجب ألا نخجل — كما صرح بذلك أحد آبائنا اليسوعيين — من الحديث عن الأعضاء والوظائف التي طاب لله أن يخلفها ويضعها فينا لقد عالجنا الطريقة التقليدية التي كانت تلزم الصمت حول هذا الموضوع ، وتولية الازدراء ، ووجدنا أنها في حاجة إلى تعديل ، وفي وسعنا أن نتفادى ونسأى بالحياة الجنسية في أزمتنا الحديثة في مجتمعاتنا الحاضرة ، بكل ما فيها من نزعة حسية خطيرة ، ومأس وسخرات للجب ، وأمراض ومتاعب أخلاقية وعقلية لاحد لها — أقول إنه في وسعنا أن نتفادى هذا كله ونسأى به عن طريق واحد هو المعرفة والعطف الإنساني“ . والمقصود من المعرفة هنا هو تلقين بعض المعلومات الجنسية إلى الأطفال ، ذلك يقابل التكمية الذي كانت تحاط به هذه الأمور قديما ، كما أن المقصود بالعطف هنا أن الأمور الجنسية لا يمكن أن تعالج بالعنف والتأنيب ، بل إن صاحبها أدعى إلى النصيحة منه إلى العقاب .

وإلى مثل هذه الدعوة دعا كثير من المهتمين بشؤون التربية في العالم المتمدن ، وبخاصة في إنجلترا وأمريكا . فننادوا بضرورة تلقين الطفل بعض المعلومات الجنسية ، حتى إذا

ماوصل إلى سن المراهقة لم يجد في الأمر ما يدعو إلى الغرابة . ولم يقصدوا بهذا أن يحاط
الطفل بجميع الأمور الجنسية إحاطة تامة ، بل كل ما قصدوه ألا يكون الطفل خالي الذهن
من الأمور الجنسية بل يجب أن يلحق ببعض المعلومات عنها في صورة قصصية جذابة . وقد
جاء في تقرير الأساقفة في "اجتماع لامبث" الذي عقد سنة ١٩٣٠ ما ترجمته : "من المهم جدا
أن يطلع الطفل على المعلومات الخاصة بالجنس في جو من البساطة والجمال قبل أن يستيقظ
الدافع الجنسي فيه بالفعل ، أى قبل سن المراهقة" . ومن أهم ما يسترعى انطفل في حياته ويود
معرفة دائما هو : كيف ظهر إلى هذه الحياة ؟ ومن الذى أتى به إليها ؟ فعلى الوالدين ،
وعلى الأم بصفة خاصة ، ألا تلجأ إلى المداورة والخداع ، بل عليها أن تتجيب ابنها أو ابنتها عن
هذه الأسئلة في صراحة بسيطة ، وعليها أن تعرض عليه قصة حياته مقربة في ذلك بينه وبين
النبات والحيوان حتى يشعر الطفل بأن الأمر عادى مشترك بين جميع المخلوقات . ومن
أحسن ما كتب في هذا الموضوع الكتاب الذى كتبه "شقايتز" وهو "كيف يولد
الطفل" ، وهو قصة موجهة إلى الطفل ليقرأها ويرضى بها تلك الرغبة الملحة
في معرفة هذا السر الدفين الذى لا تنفع في حله أية مراوغة أو مداورة أو تهديد ،
وفي الكتاب عرض طريف مبسط لهذه المشكلة ، مبتدئا من النبات ومشير من ذلك إلى
حبوب اللقاح وأعضاء التأنث في الزهرة ، ومارا بالأسماك فالطيور فالحيوان حتى يصل أخيرا
إلى الإنسان . حتى إذا ما كبورشب الطفل لم يجد نفسه أمام شئ غريب يصطدم به ،
بل سيجد نفسه أمام شئ حدث به مرارا في حياة الطفولة وصور له ، باعتباره شيئا طبيعيا ،
ووظيفة مشتركة بين جميع المخلوقات .

فعلى الآباء الذين يودون أن يجهنوا أطفالهم حياة حسية مملوءة بالشرور في شبابهم أن يسارعوا
فيعرضوا عليهم قصة ظهورهم إلى الحياة ، ويخادعهم في المسائل الجنسية بشكل طريف يسد
رغبتهم في الاستطلاع ، التى قد تتخذ صورة حادة فتفسد عليهم حياتهم كلها ، فيجنبهم بذلك
أزمات عصبية خطيرة في شبابهم . وعلى المربين أن يهتموا بهذه الناحية في نظامهم ، فيلقنون
الأطفال بعض معلومات مستمدة من علم الوراثة ، ويشرحون لهم تركيب أجهزة التناسلية
وظائفهم الجنسية وما إلى ذلك . وقد دل الاستفتاء لذى قامت به "كاترين ديفيز" بين النساء
المتزوجات ، على أن ٥٧ ٪ منهن ممن يرين السعادة في حياتهن الزوجية كن قد تلقين
معلومات جنسية عامة في حياتهن الأولى .

وكان من أثر هذه الدعوة أن تنهت الحكومات الراقية إلى خطر الطريقة التقليدية ، وأنشأت بالفعل ما يسمى بالمراكز الطبية لرعاية الأطفال . وتتكون هذه المراكز من دكتور في الأمراض العصبية والنفسية ، وعالم نفسى ، ومشتغل بالشؤون الاجتماعية . وفي هذه المراكز يتلقى الأطفال معلومات جنسية عامة على ما يسمى بالهياكل التجسيمية . وقد أنشئ أول مركز من هذه المراكز فى شيكاغو ثم فى نيويورك ثم فى لندن حوالى سنة ١٩٣٠ .

وبعد ، فأنا موقن بأن ما جاء فى هذا المقال لا بد أن يلقى قبولا من الآباء أولا وقبل كل شئ ، ومن الحكومة ثانيا .

يحيى هويدى

ليسانسيه فى الآداب — قسم الفلسفة